رافقني في القطار ، من كثرة ما تردد اسمه بيننا في الجلسة .. فقد كانوا جميعا ينظرون اليه في حب حقيقي .. ولا يبدأ احدهم حديثا حتى يلتفت اليه قائلا ..متوددا :

ـ معي يا حمد ؟

فيرد عليه زميلي في لهجة فلسطينية اصيلة ، جعلتني اسأل من بجواري هامسا .. وانا مذهول لاهمية زميلي بينهم :

ـ هو الاستاذ حمد فلسطيني ؟

فأجابني الرجل في ابتسامة هادئة :

ـ حمد ؟!... نعم .. فلسطيني !

فلت له وانا اتأمل حمد من جديد .. متعجبا كيف يبدو لهم خفيف الظل .. جذابا :

ـ كان يجب ان اكتشف هذه الحقيقة .. اول الامر !

فأجاب الرجل ضاحكا :

ـ ان لهجته مصرية لطول عشرته معنا .. لدراسته الطويلة في مصر !

فقلت له وانا ما زلت اتفحص حمد في دهشة :

ـ غريبة !.. وحضرتك ايضا فلسطيني ؟

فأجاب في ود .. وهو يزداد اقترابا مني :

ـ لا !.. انا مصري !

وكأنه ادرك اهتمامي الزائد بحمد .. وربما اراد ان يزيد من علاقته بي .. فأخذ يقص علي تاريخ حمد .. في همس .. كأنه يفشي سرا..

.. كان حمد صغيرا .. في الوقت الذي بدأت العصابات اليهودية ترهب الاهالي ليتركوا الارض .. وكان والد حمد من المواطنين الذين اصروا على البقاء .. حتى كان يوما استقبل حمد صباحه الكئيب ، فاذا به وسط دماء اسرته .. وحيدا .. يقلب جثثهم .. في ذهول !

فجأة .. قطع حديثنا احد الجالسين ، موجها ترحيبه الي .. ثم انتقل حمد مسرعا من مكانه .. واقترب مني مرحبا ، وجذب مقعدا وجلس عن يميني .. قائلا ... في مرح :

ـ ما رأيك في هؤلاء الاخوان ؟!

واستطرد سريعا .. مشيرا بيده الى الجالسين .. وقال مداعبا :

ـ اخوان الصفا ... والمرح ؟!

وعجزت ان ابتسم لدعابته ، حتى مجاملة ، وفي خيالي صورة مقبضة عن الموت .. ولكنني ـ فجأة ـ شعرت انني امام انسان غير عادي .. شخصية جذابة حقا .. مختلفة تماما عن الرجل الذي صحبني من القاهرة .. وكان ثقيل الظل على قلبي !

تبدل شعوري نحوه فجأة .. تغيرت صورته .. ولم تعد عيوننا تلتقي الا وابتسمنا في حنان .. وتقدير .. انقلب الموقف في الحال راسا على عقب ، واصبحت انا الثقيل الظل ، الذي اقترب منه متوددا .. انشد صداقته .. واعتز لو يتكلم كثيرا .. كثيرا .. فلا يسكت عن الحديث ابدا ..

ولم يأت ربيع ذلك العام في البلد الذي لم يعد غريبا علي ، حتى اكتملت صداقتي بحمد .. كنت اصحبه كل اصيل الى البحر .. حيث نجلس وحدنا على الشاطىء .. فوق قارب صيد قديم .. يظللنا النخيل .. وتعبث باقدامنا مياه البحر .. ويصافحنا النسيم فينعش وجداننا .. ونحلم .. كأننا في الجنة .. كان الجمال الذي حولنا سرابا وليس حقيقة ..

وكان يزيد من سعادتي امنية واحدة .. لو ان الطريق الى البحر .. لا يمر على اللاجئين المنتشرين في بؤس اسفل الوادي .. كانت كآبتهم تمسح نشوتي بالحياة .. وكنت في كل مرة اسأل نفسي .. في حزن.. وانا اتأمل وجه صديقي خلسة .. بينما تزدحم خواطري بمئات الصور لبؤس اللاجئين .. وكنت اهمس الى نفسي في مرارة ..

ـ متى يرجعون ؟!

القاهرة — عبد الوهاب داود

الربيع القتيل !

... هذا الخريف ،
لم تسقط الاوراق من اغمادها .
لم يعرها اصفرار ،
لم تنتزعها ثورة الرياح ،
لانها لم تعرف اخضرار
لانها ما نبتت على اعوادها
لانها ما زارها الربيع ! !
اشجارنا ظلت بلا وشاح ،
اغصانها منشبة فروعها
في جبهة الرياح ...
فروعها ، كأنها هياكل عارية عجفاء
كأنها مخالب مشهرة تكفر بالسماء !
.. كأنها اصابع البشر !
كأنها ايديهم الفقيرة الدماء ..
.. وكانت السماء ،
كأنها وجوههم
وليتها .. كأنها عيونهم ..
يا ليتها ، يا ليتها تمطرهم دماء !!
... لم تمطر السماء ،
والارض جف دمعها ،
ونبتت ذابلة ازاهر الحقول ،
كأنها تقول :
ما اظلم السماء !.. وامي الارض .. ترى هل جف ضرعيا ...
لانها لم تمطر السماء ؟!!
.. وزرعنا ، اما حفرنا ، ارضه البوار بالشفاه ؟!
وبالاظافر ..
اما رششنا تربه الاحمر بالمشاعر .
وبالصلاة ؟! ..
أما صلبنا فوقه اله
يحميه من جوارح الكواسر ،
اما سقينا بذره النابت بالدماء؟!
فما الذي غيض في عينيك يا سماء
مناهل الدموع
فمات في حقولنا الربيع
عطشان .. يا سماء ؟؟
... ردي ، أيا سماء !!

دمشق — علي الجندي